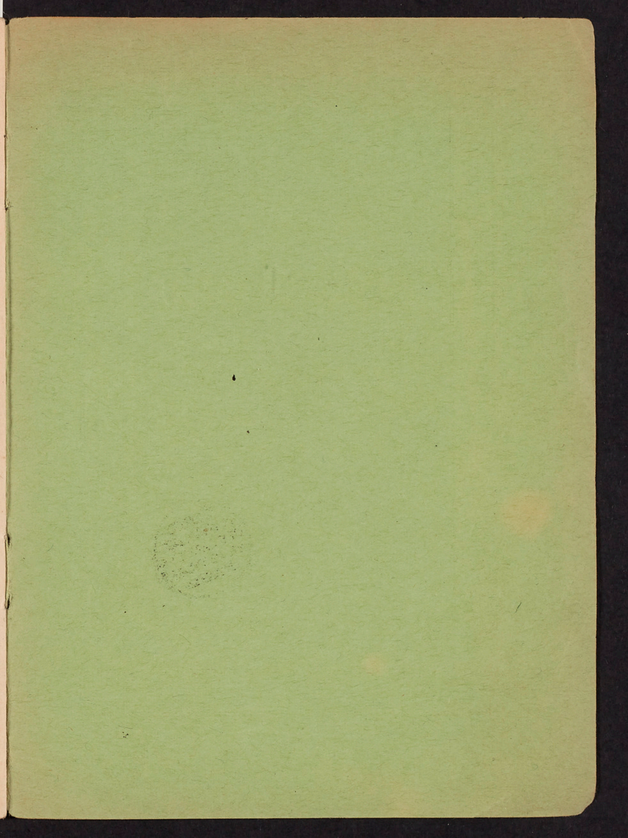
مرارة الاحتلال

محاضرة قام بها احد التونسيين فى
مدينة دمشق ليلة الجمعة ٨ فى
جمادي الثانية سنة
١٣٣٣

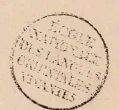
☆





مرارة الاحتلال

محاضرة قام بها احد التونسيين فى
مدينة دمشق ليلة الجمعة ٨ فى
جمادي الثانية سنة
١٣٣٣



ايها السادة الاعيان

لا انسى ان موقف الخطابة عظيم ولا سيما بين ملأ يزن الكلم بالقسطاس المستقيم .

اعرف ان مذهب الخطابة لا يملكه الا رجل سبر افكار الشعب ودرس حالتهم الاجتماعية والسياسية بتفصيل . ولكن الذى وطأ هذا الموقف امامى ان الاستاذ الغيور صاحبنا السيد حبيب الله الموصلى اقترح علي ان اقوم بمحاضرة ناتى فيها على نموذج من حال السلطة الفرنسية في شمال افريقيــة حيث يعلم ذلك الصديق انى نشأت في تونس وطئت في مدن الجزائر واكثر قُراها مرارا .

فاجبت مقترحه لاقضي شيئا من حقوق هذه الامة التى حللت في رحابها وصرت خليطا لها في طرز حياتها فارتاح لسعادتها واستاء لما يحوم حولها من المكاره فانا اذا كنا على بصيرة مما يقاسيه اخواننا الذين سقطوا في ايدى الدول المستبدة اخذنا حذرنا ونهضنا في وجه كل دولة تريد ان تقضي على استقلالنا وتسوقنا بسلطتها الجائرة الى هاوية الذلة والشقاء .

حال تونس قبل الاحتلال

اذا وجهنا نظرنا الى حال الامــة التونسية قبل ان تضع عليها فرنسا قدم احتلالها نجدها قد استفاقت من غفوتها واخذت تسير في سبيل المدنية الفاضلة بخطوات واسعة .

والذى ساعدها على الدخول فى ذلك السبيل هو الوزير خير الدين باشا فانه الف لها نظامات دوليــة واقام لهــا مشروعات عمرانية فوضع دار الطباعة وفتح باب الصحافة ونظم خزائن الكتب العامة وانشأ المدارس لتعليم العلوم العصرية واللغات الاجنبية، فضلا عما كان ينبع به جامع الزيتونة من العلوم الدينية والعربية والفلسفة وبعض الرياضيات .

وشعر الناس فى ذلك العهد بحاجتهم الى العلوم الرياضية والطبيعية فكان بعض الكبراء يبعث بابنائه الى مدارس اروبا لتلقى ما هنالك من الفنون الحديثة ، ويشهد بهذا قول الشيخ محمود قبادو التونسى من قصيدة يهنى بها الوزير مصطفى خزندار بقدوم نجليه من سفر التعلم بأروبا .

فمن لم يجس خبرا اروبا وملكها
ولم يتغلغل فى المصانع فهمه
فذلك فى كِنّ البلاهة داجن
وفى مضجع العادات يلهيه حلمه
الى ان قال
ايجمل يا اهل الحفيظة انهم
يَبُزّوننا علما لنا كان فَخْمُه

والتفتت الحكومة حينئذ لاصلاح المحاكم واقامة قانون العدل والمساواة ، ويصدق هذا قول ذلك التونسى يثنى على همــة الامير لذلك العصر حين اتخذ القانون واقام المجالس لاجرائه .

لله قانون اقام سياسة شرعية مرصوصة البنيان
جعل الورى فيه سواسية فلم يترك لناءٍ عنه بِنْتَ لسان
لم يعد فيه فقه مذهب مالك الا لفقه امامه النعمان
لكنه انتخب الذى هو لائق بمكانه وزمانه والشان
منع التظالم فى المكاسب بينهم وتسخر الادنى لذى السلطان

وبعبارة ملخصه ان ذلك الشعب النجيب كان قد دخل فى حياة راقية وشرع يسير فى خطتها المستقيمة سيرا حثيثا ولولا ان سلطة فرنسا وضعت امامه عقبة كَؤُودا لاصبح فى جبهة الامم التى يشار اليها بالبنان .

زحفت فرنسا على ذلك الوطن الذى اقتبس فى مناظره حضارة الاندلس وقبض قبضة من آثار المدنية الشرقية فلم تترك له حقا من حقوقه الا نزعته منه او قطعت منه نصيبا وافرا .

اعتداؤها على الشرف

يسوء فرنسا ان ترى المسلم بمنزلة يساوى بها الفرنسى او يدانيه فابتدعت قوانين كثيرة تحط من قيمته وتجدع انف عِزَّته فلا يسوغ للمسلم فى صريح ذلك القانون ان يراجع الفرنسى فى الخطاب بصوت جهير فاذا رفع صوته فى مناقشة فرنسى الى حيث يساوى لهجته عدت مساواته فى اللهجة وحدها جناية يستحق بها العقو به فى ماله او بدنه .

اذا شعرت برجال ادركوا مكانة بين قومهم عملت على اسقاط منزلتهم وصرف قلوب العامة عن الاعتصاب بهم بقدعوهم الى خدمة مصالحها النافضة لحقوق الوطنية والاداب الاسلامية، اوتعطى رئاسة قومهم الى رجل وضيع لينال منه أولئك الوجهاء اهانة واضطهادا.

ينزل الفرنسى مقيما فى ضيعة، فتحتم على القبيلة المجاورة له ان يقوم بحراسته فى كل ليلة طائفة منهم.

اذا قدم حاكم اجنبى اكرهت اساتذة الطرق بالبلاد التونسية على ان يحشدوا اتباعهم احتفالا به ويسيروا فى الطرقات العامة باوضاعهم واذكارهم الجهرية.

نحن لا ننكر ان تلك الاوضاع قد تشتمل على بدع ليست من الدين فى قبيل ولكن اكراههم على التلبس بتلك الاحوال فى قارعة الطريق حيث يشهد الحليم والسفيه ينبئكم بقلة رعايتها لحقوق الاعراض وعدم مبالاتها بما ينال القوم من ضحك المستهزئين ولمز المتهكمين.

يبلغ الفرنسى فى الحط من كرامة المسلمين ان يقوم الى القاضى الشرعى فيملأ آذانه شتما او يوجعه ضربا والناس يبصرون، قد تاخذ الفرنسى القساوة حتى يسود وجه الانسانية باعمال بالغة فى التوحش مثل الحاكم الذى كان ياخذ اعوانه والشمس طالعة ويدخل بيوت المسلمين ببلد كذا من صحراء الجزائر فيرسل صاحب البيت الى السجن ويرتع فى حرمه مثلما ترتع البهيمة اذا اطلق لها العنان.

اعتداؤها على النفوس

لا تاخذ الفرنسي بالمسلم رافة ولا يرعى له ذمة في بدنه او عصمة في دمه .

يمر الحاكم الفرنسي على طائفة من المسلمين فاذا لم ينتصبوا لتحيته قائمين رجع عليهم بمفرعته واخذ يجلد بها جنوبهم وظهورهم وربما بعث بهم مع بعض اعوانه الى السجن كانما ارتكبوا خطيئة لا يسعها العفو .

لا يبالي الاجنبي ان يضرب قلب المسلم برصاصة فيخر ميتا فاذا قام اولياء دمه يصرخون بالشكوى لدى المحكمة الفرنسية مهدت لذلك الجاني معذرة وخلت سبيله .

تسمى فرنسا نفسها الدولة الحامية ثم تسوق التونسيين والجزائريين وتوقفهم امام جنودها لينصروا علمها او يموتوا في سبيلها موتة الاشقى .

ترى الفرنسي يمشي في الارض مرحا ولا يستطيع مسلم ان يدنو الى جنبه مخافة ان يلاصقه بكتفه فيرفع عليه عصاه ويوجعه بها ضربا كما فعلوا بكثير كانوا يجهلون من اخلاقهم هذه الفضاضة المنكرة . وقد رأيت بباصرتي صبيا مسلما اضطره ضيق الطريق الى مماسة فرنسي فلم يكن من ذلك المتجبر الا ان رفع هراوته ونزل بها على ظهر ذلك الصبي بضربة قاسية ثم اقبل يحادث رفيقه بكل سكينة .

اعتداؤها على الدين

تشعر فرنسا بانها لا تتمكن من ادخال نفوذها في قلوب الشعوب الاسلامية ما دام نور الايمان يلمع في صدورهم فجعلت القاعدة التي تقيم عليها سلطتها ان تعبث بشعائر الدين وواجباته وتزلزل العقائد الصحيحة في صدور الناشئة. تفسح للمعلمين وهم فرنسيون ان يبثوا الشبه والمعتقدات المخالفة في افكار التلاميذ الذين يجلسون لهم من قبل ان تتقوم عقولهم بالعقائد الثابتة.

تمنح الوطني الذي يخلع ربقة الدين من عنقه سائر الامتيازات التي تفضل بها الفرنسي على المسلم درجات وبهذه الوسيلة فتنت طائفة من سقط المتاع فخرجوا عن صبغة الدين ووضعت يدها في ايديهم ليسا عدوها على المظالم التي تكدر بها عيش المومنين.

تصد الناس عن فريضة الحج في اكثر السنين وانما تسمح لهم بالسفر في السنة العجفاء حتى تكون العسرة وضيق ما في اليد سببا لقلة عدد المسافرين.

عمدت الى جوامع في مدن الجزائر محكمة المباني واسعة الرحاب فنزعتها من ايدي المسلمين واتخذت بعضها مناخا لعساكرها.

ضربت على القوانين التي انتزعها كبراء رجالنا من الشريعة الاسلامية على وفق ما تقتضيه حاجة بلادنا ووضعت مكانها قوانين فرنسية

لا تنطبق على مصالحنا ومقتضى آدابنا فضلا عما تجرح من عواطفنا الدينية حيث جعلت اقضيتنا فرنسية بعد ان كانت مربوطة بقواعد السياسة السماوية.

الزمت القاضي الشرعي في الجزائر ان يصدر احكامه بهذه العبارة «بالحكم الجمهور الفرنسوي عن اذن الامة الفرنسوية حكم القاضي فلان الخ».

اعتداؤها على الاموال

انقضت ظهور الاهالي بما تضعه من الضرائب على الرقاب والمزارع والمباني والحيوانات والعربات والبضائع حتى اصبح مقدار وارداتها يتجاوز خمسة اضعاف ما كان يستخلص من الرعية قبل احتلالها.

يرد الفرنسي (الذي تسميه معمرا) وحالته تنطق عليه بالفاقة والبؤس فلا يلبث ان يصبح ذا ثروة واسعة واملاك طائلة وانما هي اراضي الوطنيين يبسط اليها يده الفاجرة ورجال دولته يبصرون.

استولت في الجزائر على سائر الاوقاف وتصرفت فيها كما تتصرف في املاكها ثم قررت ان تقطع ما كانت ترشح به من اصلاح مسجد او معاش امام من غير ان ترد عليها شيئا من اوقافها.

ابقت دائرة الاوقاف في تونس بايد الوطنيين ولكن وضعت زمام ادارتها الحقيقي بكف فرنسي يصرفه كيف تميل به اهواء دولته. ومن تصرفاتها المكروهة انها اباحت المزارع الموقوفة للفرنسيين فياخذونها باثمان قدرتها لهم دون قيمتها الصحيحة بكثير.

اعتداؤها على الفكر والعلم

تعلم فرنسا ان المعارف اذا انتشرت بين امة نهضت من سباتها ولا ترضى لاي دولة ان تعبث بحقوقها فمسكت بادارة التعليم وظلت تعمل على اضاعة العلوم الدينية والقضاء على اللغة العربية وتشح على الناشئة بالعلوم التى تثقف الافكار وتقوم عليها دعائم العمران .

بلغت فى الجزائر معظم املها فاصبح الجهل ضاربا اطنابه فى المدن والقرى وانقلب لسانهم الى لغة فرنسية قائمة على آثار من العربية وبقية مما ترك آل البربرية .

والذى اعجزها عن الوصول الى هذه الغاية فى تونس انما هو جامع الزيتونة الذى تدرس فيه العلوم الدينية وغيرها بالعربية الفصحى . وقد اخذت منذ سنتين تشتت شمل هذه المدرسة الجامعة بقوانين لا تحمد عاقبتها .

ابطلت منذ ثلاث سنين جميع الصحف العربية ولم تبق منها سوى جريدة واحدة كانت تسير فى منهج لا تناقش فيه الحكومة .

اما الجرائد الفرنسية فانها تصدر فى تونس والجزائر كل يوم وهى مطلقة العنان فى الطعن على الاسلام بكل صراحة ووقاحة . ولا يمنعها الحياء من اغراء حكومتها على تشديد الوطاة فى حكم المسلمين واغلاق منافذ الحرية فى وجوههم .

اعتداؤها على الوظائف

لم يكفها ان يكون رؤساء الدوائر فرنسيين فجعلت ترمى بابناء وطنها على صغار الوظائف وكبارها حتى غصت بهم دوائر الحكومة فكنا نراهم عند انصرافهم منها كالسيل الجارف يتدفق يمينا وشمالا.

ربما حصرت فيهم الولاية ببعض الادارات فلا يشاركهم فيها الوطنيون كنظارة الخارجية والحربية وادارة البرق والبريد وقد يكون الوطنيون بينهم عددا يسيرا لا يكاد يظهر مثل ادارة النافعة وادارة المال وادارة البلدية وادارة المعارف.

سمحت منذ سنوات بان يكون للامة التونسية مجلس شورى فتباشر الناس بما هب عليهم من نسيم الحرية فما راعهم الا ان كان اكثر من ثلثيه فرنسيين، والبقية من التونسيين تنتخبهم الحكومة بنفسها، وما ذا ترجو الامة من نواب تدخل الحكومة فى انتخابهم.

تسمى فلانا اميرا وفلانا وزيرا ثم لا تلقى اليهما من امر الرعية شيئا بل لتتخذ ختم هذا وقلم ذاك مظهرا لما تامر به وتنهى حتى يكون عرضة لطعن العامة حين يضجرون من ثقل تكاليفها.

قد يتحد المسلم والفرنسى فى اسم الوظيفة ولكن المسلم يتقاضى من المعاش ربع او ثلث ما تبذله لذلك الفرنسى الذى لا يفوقه فى فكره ولا يزيد عليه فى عمله.

قطعها للصلات الخارجية

كان الناس قبل احتلالها في فسحة من حرية المراسلة والمزاورة. يراسلون الشعوب الشرقية والغربية ويوالون الزيارة للقادم عليهم من الممالك الخارجية من غير ان تنصب عليهم الحكومة رقيبا او ترشقهم بسهم ملامة او تعنيف، لا سيما العلماء والادباء فقد كانت القصائد دائرة بينهم وبين الامراء والادباء في مشارق الارض ومغاربها. ولما ضربت عليهم فرنسا بسيطرتها شددت المراقبة على المكاتبات الواردة والصادرة واظهرت انها تكره من التونسي والجزائري ان يعقد مخاطبات مع من في مملكة اخرى ولو لم يكن لها مساس بالشؤون السياسية. وقد عزلت احد الادباء من وظيفة الكتابة بالوزارة حيث بلغها انه مدح احد امراء الشرق بقصيدة.

والمشرقي اذا حل في تلك البلاد ارسلت وراءه عيونا يضبطون عليه سائر حركاته ويتجافى عن لقائه كل من له وظيفة او علاقة بالحكومة. وقد عزلت احد الشبان من وظيفة الترجمة عند ما القي اليها انه يزور رجلا قدم من بلاد الشرق.

وافعة الجلاز

هل اتاكم حديث وافعة الجلاز ودريتم سببها وعافبة امرها (الجلاز) مفبرة لها موفع الاحترام بى فلوب التونسيين لانه مدبن علمائهم وبضلائهم منذ زمن بعيد .

ارادت فرنسا ان تبعثر فبورهـا وتمد بيها سكك الترموابى بعنـد ما خرج اعوانهـا لرسم حدودها وتسجيلها فابلهم الاهالى بمعارضه لسانيـة ابضت الى المضاربـة بالايدى والحجارة بانتهز بعض الايطاليين هـذه المشاجرة برصـة واراد ان يشبى شيئا من الاحفـاد التى تربت بى فلبـه من آثـار الحرب الطرابلسية باجهز بسلاحه على مسلم مار بالطريف بفتله بعافبهم الوطنيون بمثل صنيعهم حتى بلغت الفتلى من الجانبين بضع عشرات .

اخذت الحكومة تلفى الفبض على كل ذى شبهة من الوطنيين بضربت اعنـاف بعضهم فتلا وحكمت بالسجن الطويل على اخرين .

اما غير المسلمين ومن شاركهم من اعوانها بى البـداءة بالفتل وسبك دماء رجال ونساء بلم ندر ما ذا كان جزاؤهم عندها .

مقاطعة الترمواي

قام في المدة الاخيرة جماعة من اعيان التونسيين وقدموا الى شركة الترمواي الفرنسية مطالب كلها حقوق مشروعة مثل اقتراحهم عليها ان تستعمل من الوطنيين بمقدار ما تستعمل من الاجانب وان ترقي اجور العملة الوطنيين الى مثل اجور العملة الاجانب فرفض رئيس الشركة هذه المطالب واظهر عدم العناية بتلك العصابة التى هزتها الغيرة الى المطالبة بحقوق وطنية. فسعوا في عقد اعتصاب اهلي على مقاطعة الترمواي فبقيت عرباته تصعد وتنزل اياما ولا ياوى الى الركوب بها احد من المسلمين.

فعزمت الشركة وقتئذ على اجابتهم لما قدموه من المطالب فصدتها الحكومة الفرنسية بعلة ان قبولها اليوم يعلمهم التمسك بمبدا الاعتصاب في مستقبل الايام.

وتولت القضية بنفسها فسجنت بعض اولئك الاعيان وابعدت طائفة منهم الى اقاصى المملكة واخرين الى خارجها فانحلت عقدة الاعتصاب بالطبيعة وذهبت تلك المطالب فيما ذهب من الحقوق الغابرة.

نتيجة المحاضرة

ان ما لوحت اليه من نوائب الحكومة الفرنسية لا يبلغ اثره ان يربي احساسا بين جوانحكم يتالم من سلطة الدول المحاربة كما يتالم

الذى عاش فى مجاريها زمنا طويلا ولكن اصحاب البصائر النافذة لا يعجزها اذا عنيت بمجال المستقبل ان تصل بى فهم الحقائق الى منزلة من يدركها بعد طول التجربة والمشاهدة واقل ما يستفيدونه من مطالعة احوال الدول الباغية شعور يدفعهم الى الحذر من مكائدها والتحفظ من وافعة احتلالها .

لا نقنع من الامم الاسلامية المستقلة ان تقف فى وجه عدو يستوفز او تطعن فى صدر الهاجم عليها طعنة ترده على عقبه خاسرا ، بل نتجاوز فى الامل الى ما وراء هذه الغاية وهو تخليص تلك الشعوب التى قيدها المحاربون بسلاسل الاستعباد .

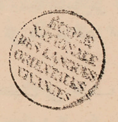
وقد يخيل الى السامع انى رميت بالامل الى غاية متعذرة فنقول ان الامة المستقلة اذا نصبت امامها غاية شريفة وصبّت عزيمتها فى السعي اليها فلا بد ان تبلغها باذن الله وان كانت فى موقع الثريا بعدًا او جبهة الاسد منعة .

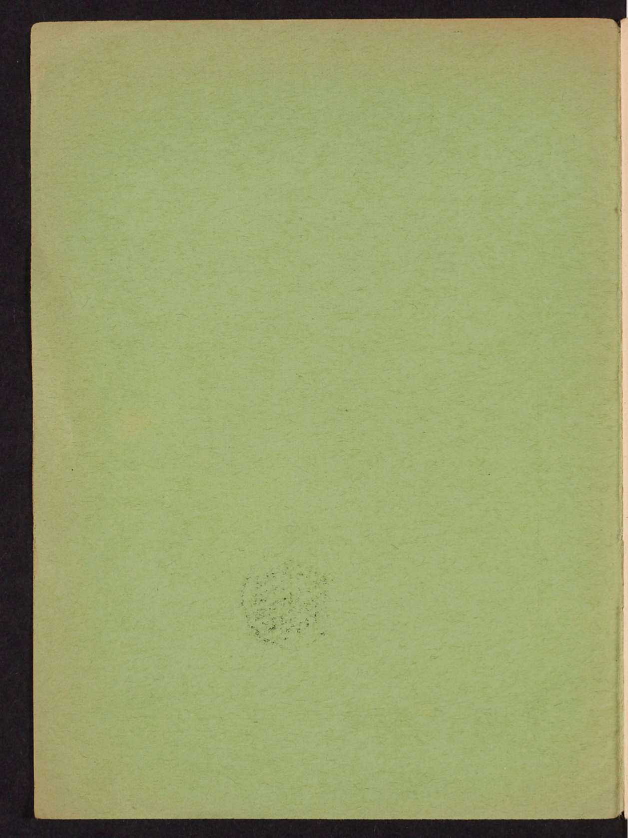
ولئن ودعتنا الحياة قبل ان ناخذ بايدي اخواننا ونلتقى معهم فى مستوى الحرية فلا يفوتنا انا وضعنا اساسا يبنى عليه خلفنا الذى يلزم ان نشربه الحماسة ونطبع على قلبه عواطف اسلامية فى مبدا نشأته .

اتظنون ان الجيل الذى كتب فى صحيفته اقتسام بلادنا من المحاربين هو الذى مد سلطته على مثل تونس والجزائر ومصر .

لا اخاله الا جيلا انقرض عن وسائل كان يجمعها حتى جاءت ناشئة
اخرى وابتـــدأت من حيث انتهى ذلك الجيل الغـابر فلم
تلبث ان انتزعت من عقد ممالكنا تلك الدرر الباخرة.
فالشعوب المتيقظة تعلم ان كل غاية من مناهج الحياة
الشريفة يمكن الوصول اليها، وان ما يدخل في
حوزة الامكان لا يصعب على اولى
العزائم الثابتـــة مناله فتشمر عن
ساعـــد جدها وتجرى في
هممها على حكمة ابي
فراس حيث
يقول

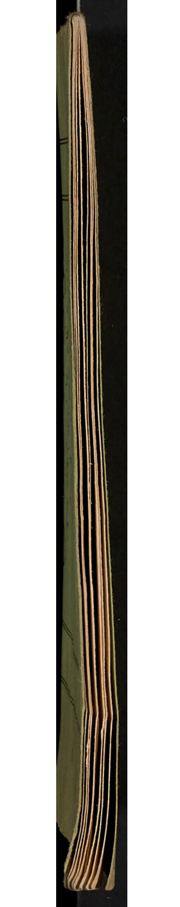
ونحن انـاس لا توسط بيننـــا   لنا الصدر دون العالمين او القبر.












x-rite
colorchecker CLASSIC